



# الاستشراق وزوايا القراءات للموروث الثقافي العربي الجاهلي

عمار يزلي

قسم علم الاجتماع

جامعة وهران

amar.yezli@gmail.com

*Received: 5 Sept. 2014,*

*Revised: 1 Nov. 2014, Accepted: 30 Dec. 2014*

*Published online: 1 (May) 2015*

---



# الاستشراق وزوايا القراءات للموروث الثقافي العربي الجاهلي

عمار يزلي

قسم علم الاجتماع

جامعة وهران

## الملخص

"الاستشراق"، الاستعراب و"الاستغراب"، ثلاثة توجهات "علمية" ذات نكهة إيديولوجية، طبعت المقاربات المنهجية للدراسات حول التاريخ العربي، والجاهلي منه خاصة. لم يتمكن الكثير من هؤلاء، وخاصة العرب منهم، المتأثرون بهذه المناهج من الخوض في التاريخ العربي الجاهلي من الإفلات من متكآت غير علمية وغير موضوعية، كان المستشرقون القدماء قد اعتمدها مطية "لموضوعية علمية" موضوعة!؛ الشعبية كعنصر صراع مختلق ضد العرب من قبل الفرس الساسانيين، البداوة المعجمة، التي تنفي عن العربي كل تحضر مسبق، "الأمية" التي ربطت عن قصد بالمفهوم "الجاهلي" ذي البعد اليهودي اسما وتوجها (الغوييم). يضاف إلى ذلك توابل التأثير الفكر الديني اليهودي المسيحي، والنزعة الأورو-مركزية والعلمنة، والعلمنة الاقصائية والإلحادية.

الكلمات المفتاحية: التراث، الجاهلية، الاستشراق، العرب.



# **Orientalism and the Corners of the Pre-Islamic Arab Readings of the Cultural Heritage**

**Amar Yezli**

Department of Sociology  
University of Oran

## **Abstract**

Orientalism, Arabism and Occidentalism; three tendencies «scientists» say that these characterize ideological and methodological approaches of the studies concerning the history of Arabic before Islam. Among these were, Arab intellectuals, influenced by these approaches who were not able to escape these weaknesses which we can consider as «un scientific and un objective. The former orientalists adopted as biased support: «Djahilisme» enhanced by the contempt of the Persians against Arabic, the concept of overgeneralization of «bédouinité», and finally the «Oumma»; portrayed by a Judeo-Christian tendency. The euro-centrism will be the cement of this «scientifique methodology».

**Keywords:** Methods. heritage, pre-islam, orientalism, arabs.

# الاستشراق وزوايا القراءات للموروث الثقافي العربي الجاهلي

عمار يزلي

قسم علم الاجتماع

جامعة وهران

لا نريد هنا التحدث عن الدراسات الاستشراقية ككل وبشكل منهجي وتفصيلي ونقدي، لأن ذلك يشكل موضوعاً آخر، لكن ما نريد أن ننوه إليه في هذا السياق، هو أن كثيراً من الدراسات والدارسين المستعربين والمستشرقين قد أفادت التاريخ والأدب والفكر العربي والإسلامي عموماً، ولا يمكن إنكار ذلك. ما نريد أن نقدمه في هذه القراءة، مجرد عينة من هذه المقاربات لموضوع محدد في الزمان والمكان: الفكر العربي في العصر الجاهلي! كيف ولماذا، وما هي خلفيات هذه القراءة الاستشراقية في العموم لهذه الحقبة المؤسسة للتاريخ الثقافي والفكري العربي الإسلامي فيما بعد؟.

يشكل في واقع الأمر موضوع تناول التاريخ الحضاري لشبه الجزيرة العربية خلال الفترة الجاهلية وما بعده، أحد أهم الأمثلة في ما نراه في هذا السياق، وأحد أهم محاور القراءات فيما يتعلق بالقواعد الاتكائية والدعائية للقراءات الأخرى: اللغوية، الدينية والفكرية خلال الفترة وبعدها.

وفي هذا السياق، تبدو الأسس الفكرية والمرجعيات العقائدية الدينية والسياسية للقراءات الاستشراقية للموروث الحضاري العربي قبل الإسلام، رهينة توليف مفهوماتي، على الأقل فيما يتعلق ببعض المفاهيم التي بنيت عليها بعض من هذه الدراسات، ذلك أن مسلمة "الأمية"

تشكل المناهج والمقاربات المنهجية الغربية المسماة أحياناً "علمنة" تحت لواء الاستشراق والاستعراب، إحدى أهم صور الصراع بين "الدخيل" والأصيل" التي حركت آليات التهم والتشكيك الإيديولوجي في مسائل بقيت محسومة عربياً إلى وقت غير بعيد.

هكذا، بدت الدراسات الاستشراقية للعالم العربي، بدءاً من الأطوار التطورية له، بداية "لتحديث" أو "لتحيين" التاريخ العربي والإسلامي على ضوء المقاربات المنهجية الغربية التي استحدثت على ضوء تطور آليات التطور الآلي نفسه، أي التطور الرأسمالي والصناعي في أوروبا بداية من القرن ١٨ وال ١٩.

الدارسون العرب، المتشبعين بهذه النظريات وهذه التصورات، المعتنقين لهذه المناهج وهذه التوجهات. التي لم تكن كلها على حد سواء في "السوء" ولا في الطيبة. كانوا في كثير من الأحيان "تلامذة" لهذا المد، فسارع الكثير منهم إلى حد الظهور بمظهر "الملكية أكثر من الملك" وأعلنوا في كثير من الأحيان قطيعتهم مع التصورات والمناهج القديمة في قراءة التاريخ العربي والإسلامي. بذلك، كان "الدخيل" في كثير من الأحيان "متناقضاً" ومصارعاً "للتأصيل" على قاعدة الصراع الذي كان يدور في العلن: الاستعمار.

ثقافيا، حسب الموقف الشعبي (الذي يراد به موقف العداء للعنصر العربي من منظور نزعة شوفينية عنصرية فارسية تجاه العرب، من «العروبي»؛ أي الموقف العربي المناوئ للفرس، ومن متكى عرقى لغوي صرف، ذلك أن البعد المصلحي الذي نما مع تطور ما سماها الدكتور تيزيني بالبرجوازيات المالية، المبكرة بشبه الجزيرة العربية، على الأقل خلال القرنين السابقين للدعوة الإسلامية، حيث نمت وتطورت بعض المراكز الحضرية، كما لدى الحميريين والسبثيين والغساسنة والمناذرة في كل من الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق، كما يشير إلى ذلك جواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام، كان بعدا حاسما في تحريك الآلة الأيديولوجية والسياسية بين هذه التجمعات الحضرية المتصارعة وقتها على طرق التجارة بين الشمال والجنوب عبر خطين رئيسيين شرقي وغربي، انطلق كلاهما من حضرموت في الجنوب، إذ امتد الأول حتى سورية مرورا بالخليج العربي، فيما امتد الثاني إلى سورية دائما، ولكن مرورا بالبحر الأحمر فمصر، وهو الخط الذي ستكون مكة آخر محطاته المهمة قبل أن تصبح فيما بعد المحطة الأهم<sup>1</sup>.

فظهر المدن التجارية التي قد تدخل ضمن مفهوم الدولة المدينة قبل أن تحول إلى الدولة الأمة خلال العهد الإسلامي معها - وظهور معها الحركة التجارية والأسواق الموسمية (٤ أشهر من السنة): عكاظ وذى المجاز، قد طور آليات المنافسة الاقتصادية بين هذه التجمعات جنوبا وشمالا، شرقا وغربا: اليمن، سورية والفرس والأحباش وحتى مع روما الغرب كما يرى المؤرخ أوليري في كتابه «العرب قبل محمد» عندما يشير إلى أنه «كان يوجد بمكة نفسها بيوت تجارية رومانية استخدمها الرومان للشؤون التجارية والتجسس على أحوال العرب»<sup>2</sup>.

و«الجاهلية» وعدم قابلية الفكر العقلاني وابتعاد العرب عن الإنتاج المادي، على سبيل المثال، أريد لها أن تصبح فرضية ثابتة ومتأصلة حتى في ما نسميه بمؤسسة إعادة إنتاج المنتج الأورو-مركزي، التي طال أكثرها الفكر العربي الإسلامي ذاتيته. والمثل على ذلك، الإسهامات العربية الاستشراقية في تأكيد هذه الفرضيات في الشعر الجاهلي لطفه حسين مثلا، أود.محمد حسنين هيكل وغيرهما.

سوف نحاول أن نقف على موقف الشعوبية التي كرسست القواعد الاتكائية للقراءة الاستشراقية للتراث العربي قبل وبعد الإسلام، لكن سوف نقف أكثر عند النزعة المركزية الأوروبية. كما سنحاول العمل على إبراز أثر العلمنة كمنتج بضاعي رأسمالي، ابتدع مع المبتدعات الميركانتيلية والتوسع الاستعماري (فرنسيس باكون في السياسة، سان سيمون وفورييه «كاشتراكيين رأسماليين»، وقبلهما فكر البورجوازيات الصاعدة في أوروبا: آدم سميت في الاقتصاد وديكارت في الفلسفة وفولتير في الأدب... الخ). هذه النزعة التي ارتبطت بمفهوم العصرية ثم الحداثة، سيكون متقفو العالم العربي والإسلامي أهم موصل لشروط القراءات الاستشراقية للتراث العربي والإسلامي، ومنه محاولة إكساب شرعية هذه القراءات عن طريق تعريب الاستشراق، وتشريق الاستغراب، وهو لب ما ذهب إليه بعض الباحثين العرب في المشرق والمغرب العربي، على خلافهما المنهجي، من أمثال د. طيب تيزيني والجابري.

سوف نقف عند بعض من النقاط الارتكازية، التي تطرق إليها د. تيزيني، لمنطق القراءة الأورو-مركزية، وليس كلها، ذلك أن بعضا من النقاط الأخرى، يمكن أخذها من باب «حق أريد به باطل»، أما النقاط التي نريد أن نقف عندها قليلا في هذه القراءة، فهي تلك النقاط التي تعتبر «باطلا أريد بها حق» ومنها:

### ١. الموقف الشعبي:

المرحلة الجاهلية التي نعني بها المرحلة التي سبقت مجيء الإسلام، لا يمكن بالتأكيد قراءتها

١- طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي العصر الوسيط، دار دمشق، ١٩٧١، ص ١٢٩  
٢- أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، الطبعة ٢، ١٩٦٤، ص ١٢

وهي أحدهم ثوب بن شحمة يأكل لحم امرأته وكان هذا أكرم نفسا عندهم من أن يطعم طعاما ميتا ولو مات عندهم جوعا... ..) والتي غدت حقائق تبناها حتى المؤرخون والمفكرون العرب.<sup>٢</sup>

#### ١.١ البداوة المعممة:

لم يكن الفكر العربي - البدوي بطبعه منسجما دائما وإن كان الطابع البدوي الرعوي هو الطاغى لارتباط العربي بالنمط الاقتصادي الرعوي والزراعي المحدود. فالنمط الزراعي لم يكن متطورا إلا في حدود ما نسميه بالاقتصاد الفلاحي المنزلي ذي المنتج الاكتفاي، فيما كان الرعي نمطا شبه سائد في الأرياف وضواحي المدن التجارية (الطائف ونجد وجنوب العراق) ولأن المنطقة العربية هي منطقة ذات مناخ صحراوي قاري تفضيه المنطقتان الصحراويتان: النفوذ في الشمال والأحفاف في الجنوب.

ولأن المناطق الخصبة كانت قد جلبت ببعض القبائل العربية إلى الشمال على الحدود العراقية السورية (ومنها قبائل بني هلال، الأثيج، المعاقيل، بني سليم، رياح... ..) فقد أنتجت هذه الظروف الحياتية القاسية شخصية البدوي المترحل التي ستوسم بالأعراب، بكل ما يتصفون به من أوصاف وسلوكات ومواقف فرضها نظام العيش. غير أن الأعراب لم يكونوا يشكلون كل البداوة وكل البدو... ذلك أن الاستقرار قد ساهم في إنشاء حواضر سكنية، سرعان ما تحولت إلى مدن ذات منحى اقتصادي-رعوي زراعي-يثر مثل... (خلافا لمكة التي كانت مدينة تجارية وربوية بامتياز) يذكر هنا الأب لامنس أن المرابين في مكة كانوا يطلبون فائدة تقدر بنسبة ٤٠ إلى ١٠٠٪)<sup>٣</sup>

من هنا، فالأعراب لم يكونوا يشكلون النسيج الاجتماعي القبلي الوحيد، وبالتالي فإن صياغة ذهنية الأعراب وإصاقها تعميمها على العرب كان بفعل العمل الإيديولوجي الشعبي أساسا لاسيما

وعليه، فإن ظهور معالم البرجوازية النقدية بالمنطقة - ولو بشكل بدائي مبكر. قد فتح أبواب المنافسة على الصراع الفكري والإيديولوجي خاصة على مستوى محوري حضرموت - الخليج العربي، شرقا، وحضرموت - مصر، وعن طريق مكة غربا: خطان تجاريان يربط الأول اليمن بفارس الساسانيين، والثاني الجنوب الغربي بشماله. ولا شك أن تقوية مكة لدورها التجاري من خلال رحلة الشتاء والصيف، كان عاملا حاسما أيضا في ترجيح كفة المنافسة إلى الخط التجاري الغربي على حساب الخط التجاري الشرقي.. ومنه كانت بوادر المد الحضاري الشعبي.

فأصل الصراع، لم يكن إثنيا بشكل مباشر، رغم مظهره الخارجي العام. ذلك أن الأرستوقراطيات الفارسية الساسانية المنتجة لهذه الإيديولوجيا رغم التظاهر بأن الغوغاء هم مصدر هذه المواقف الفكرية، كانت شديدة الترابط مع الأرستوقراطيات العربية المكية اليمينية والشامية وما كان ينتج فكريا على مستوى الطبقات العليا، كانت تتبناها عمليا الطبقات الوسطى: المثقفون من شعراء ونسابة ورواة الذين يتكفلون بتلقي الغوغاء هذه القراءات المستلهمة من الأرستوقراطيات النقدية.

بدأت الإيديولوجية الشعبية تصوغ ذاتيتها على أسس حضرية - ريفية التي تمتع العربي بالبداوة والجهل والأمية، بل وبأكل لحم البشر (يتحدث الدكتور عبد المنعم ماجد أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية عين شمس وكتابه تاريخ السياسي للدولة العربية عن أكل لحم البشر من طرف العرب. وكان بعض الأعراب يذبحون الكلاب كقبيلة أسد ويأكلون لحوم الناس كقبيلة هذيل، معتمدا على الجاحظ في البخلاء هذا الأخير الذي يوضح، وهو غير العربي والمتهم الشعبي، أن الكلام عن الأطعمة المذمومة كانت تتهاجى به القبائل كالتهاجى بأكل الكلاب وأكل الجراد وأكل الضيف وأكل المرأة كما هجيت بذلك أشعار العيث أو الوضع قبائل أسد وهذيل وباهلة: يقول الجاحظ

٢- عبد المنعم ماجد: ماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب، دار

الجيل بيروت، ١٩٨١، ص ٧٨

٤- طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة.. سبق ذكره ص: ١٤٠.

السوسيولوجية النفسية وأنماط السلوكيات وأشكال التعبير عنها، وهذا ما قد نسميه بالتراكم الثقافي المعرفي الذي يشير إليه تايلور أو حتى مالمينوفسكي في معرض الحديث عن الثقافة والبنى والوظائف.

فالجزيرة العربية وسكانها وأهلها لم يخرجوا من العدم، فالإرث التاريخي الحضاري المستمد من الحضارات البائدة لا يستبعد أن يكون تأثيرها قد وصل إلى الحضارات المجاورة (الإغريق، الرومان، الفراعنة، الفرس وبيزنطة) إذ يعتقد أن لهذه الحضارات تأثير ارتدادي على شعب شبه الجزيرة فيما بعد. كما ستحاول المدرسة الأورو-مركزية. تأكيده فالنثر اللغوي الذي يشكل جوهر الحضارة العربية الجاهلية وسمتها البارزة، لا ينبغي أن يمر على أساس أنه ثراء بنية فوقية، معزولة عن ظروف إنتاج هذا الثراء البنيوي العروبي، إذ يعد الأخذ بهذا الموقف من قبيل اجتثاث الرأس عن البدن.

فهذا الركام والثراء اللغوي الذي سيشكل مادة الشعر العربي، لا يمكن إلا أن يكون حاملاً لركام حضاري معرفي وتاريخي دفين لم يبلغ المؤرخون والدارسون للفترة تحديد أبعاده الأكثر من ٥٠١ سنة.

هكذا فإن التأثير والتأثر الذي يعطي معادلة التثاقف، هو مصدر الثراء اللغوي العربي الجاهلي الذي ينبغي أن تطور البحث على جذوره الاجتماعية والتاريخية بالعودة إلى العلوم الطبيعية والأثرية والاستكشافات الجيولوجية للمنطقة- كما حاول بعض الباحثين السوفييت خلال السبعينات بحثاً عن حضارات عاد وثمود وسبأ.

## ٢. المتكأ الديني العقائدي:

### ١.١ تأثير الفكر اليهودي:

الجاهلية كلفظ قرن أيضاً لدى المستشرقين ولدى المستعمرين على السواء بمن فيهم المتأثرين من العرب بهذين الاتجاهين على أساس أنه جهل علمي (ignorance savante)، وأردف بمفهوم الأمية (analphabétisme) مع كل الفوارق السيميائية بين

إذا علمنا أن البدوي قد عرف عنه من محاسن الأوصاف والشمائل ما يفوق الرجل المدني.

### ٢.١ أمية الجاهلية:

كما أن لفظ الجاهلية، الذي لا يتحمل أكثر من مدلوله القرآني قد أعطته النزعة الشعوبية دلالة معرفية لا دلالة سلوكية وقد تلبس بهذه القراءة مثقفون مسلمون بدورهم كابن قتيبة مثلاً، فيما يؤكد البعض منهم ناصر الدين الأسد في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» سوء هذا التقدير ويذكر أن العرب كانوا على اطلاع على الكتابة بالخط العربي وإن انتشار الكتابة باللغة العربية والقلم قبل البعثة المحمدية (يمكن أخذ التأثير اللغوي من تاريخ الكتابة العربية ونمطيتها هل هي مقطعية أم أبجدية متأثرة بالإغريقية، أم أن الإغريقية متأثرة بالفينيقية أصلاً. هذا إذا أضفنا تأكيدات ما ورد في النص القرآني ذاته: «وقالوا أساطير الأولين اكتبتها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» (الفرقان/ ٥) وقوله تعالى: «ولن نؤمن لرفيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه» (الإسراء/ ٩٢).

أكد أن الفكر والموقف العروبيين كانا يعتبران رد فعل على الموقف الشعوبي، وعليه فمن الصعب أن نحدد بالضبط حقيقة الحقبة التاريخية السابقة للبعثة المحمدية. غير أن المحاولات الأركيولوجية والدراسات الأنثروبولوجية في مجال اللغة، خاصة الشعر، على تعدد المناهج والمقاربات والقراءات التي لم تنتج من القراءات الاستشرافية ذات التأثير الشعوبي أو حتى العروبي قد تعطي بعض المعالم والنقاط الإشارية لهذه الحقبة التاريخية.

فعلى المستوى المنهجي لا ينبغي أن نحدد هذه المعالم انطلاقاً فقط من الشعر أو الأيام أو حتى المعتقدات، كما وردتها الكتب على مختلف ألوانها. فالمعرفة ليست محصورة في الشكل الكاليفراي (الكتابة) أو نمط الحياة (البدوة) أو النمط الفكري الديني (المعتقد)، بل يتعداها إلى الأشكال

٥- يمكن العودة إلى د جعفر دك الباب النظرية اللغوية العربية الحديثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٦.

(الضياء) البعيدة والسماء التي تمثل لديهم الواحد الأعلى.

حتى عبادة الشمس أو الضياء أخذها الإغريق عن الفينيقيين (ومنها جاء لغة الضاد) بترانيم اقل لهاتية زوس (Zeus) لدى الإغريق DeI لدى اللاتينيين ثم Dios و Dieu و God لدى اللغات المشتقة من اللاتينية، هو اعتقاد غير إغريقي بل نبطي فينيقي.

المجتمع العربي (عرب الأمصار، وأعراب البوادي)، كان مكونا في عمومها، (مع وجود موحدين، مسيحيين ويهود وصابئة وحنفاء)، ممن يفهم القرآن "بالمشركين"، والشرك ليس مرادفاً "للوثنية"، فقد يمكن للمرء أن يكون مشركا دون أن يكون وثنياً! فلقد كانوا يؤمنون بالله الواحد، لكنهم كانوا يعتقدون في "شركاء" الله: "والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" (الزمر/٢).

من جهة، يؤكد ذلك صحة أكثرية الشعر الجاهلي (دون أن ننفي عمل الرواة وما إلى ذلك، لكن دون أن يكون العمل عملاً ممنهجاً دينياً بغرض إقصاء الفكر الوثني من الشعر الجاهلي!). فطبيعة البدوي، على رأي "فيليب حتي"، تتميز بقلّة الارتباط بالأرض، وبالتالي بالفضاء ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية وما تنتج من بنى فكرية عقادية سرعان ما تخضع لعملية "مأسسة"، وبالتالي فهو قليل الارتباط بالدين والتدين، على عكس "المدني"! (معلوم أن المدن والحوضر هي التي شهدت الصراعات وبالتالي ظهور أنبياء ورسول ورجال دين ومؤسسات دينية!). قليلة التدين، هذه، (والتي نتبناها، ليس لإيماننا بذلك فحسب، بل لملاحظتنا ودراستنا للمجتمع البدوي العربي الإسلامي المعاصر، وهو سليل هذا النمط الذهني ووارث مورثاته المتمثلة في نمط الإنتاج الاجتماعي والاقتصادي، والذي يلاحظ عليه تاريخياً منذ عهد النبوة إلى اليوم "نزوعه إلى بساطة العبادة وهشاشة الفكر الديني عن البدوي بشكل عام، أي حتى في عصر

المفهومين. فالظاهر أن الجاهلية صفة سلوكية، وأن الأمية هي صفة دينية وليست معرفية ولا حتى كالغرافية رسمية، ولا نستبعد هنا تأثير الفكر اليهودي حتى لا نقول الديانة اليهودية في شحن هذه العبارة التي هي لفظة عبرانية محورة من الغويم Goyim أي كل من لا يعرف قراءة الكتاب، والكتاب هنا هو التوراة ليتحول مدلول الغويم إلى أمية معرفية كما تؤكد عليه أكثر من آية قرآنية وهنا لا نستبعد أثر الفكر اليهودي في تحريك هذا المفهوم باتجاه مفهوم الجهل العام أو الأمية المطبقة التي سادت شبه الجزيرة قبل الإسلام وقد توسع هذا الانطباع بدعامات شعوبية، ستحول فيما بعد إلى أرضية لمنطلقات ذات نكهة إيديولوجية أساساً سياسة عملاً لدى المستشرقين المستعربين الذين سيقومون الفواصل بين الشرق والغرب على أساس حضاري معرفي مقترض ومقسم على أسس نظرية تخمينية: شرق منتج للروحانيات وغرب منتج للماديات.

#### ٢.١ الذاتية المسيحية الغربية:

غير أن هذه النظرية الاستشراقية تجد من يفرضها ممن يقبلونها كطرح عام عندما يقبلون بفكرة أن العربي قليل التدين، كما يرى ذلك «فيليب حتي» عندما يذكر في كتابه «تاريخ العرب» أن البدوي لا يكتثرت كثيراً للدوافع الدينية، بل كان يقف منها موقف الحياد، أو ومن يؤكد لها من زاوية دينية محضة كما فعل «الأب شيخو» مع عنتره الذي كان شاعراً كبيراً لأنه كان يدين بالمسيحية. هذا الرأي يشكل دعامة للرأي القائم على عقلانية المجتمع البدوي العربي الذي أريد له أن يكون قدريا ساذجاً قياساً بالوثنية الإغريقية المتطورة هذه المقارنة تحيل إلى إدراك إنساني لتاريخ وسيرورة المعرفة وتاريخ التجريد العقلاني الذي يجعل من الوثنية الشخصية أبسط أشكال المعرفة كونها دليل على الإخفاق في التجريد «فالوثنية» العربية لم تكن تلك الوثنية المعروفة لدى الإغريق التي كانت تؤنس الآلهة وتؤله الإنسان فيما كان الوثنية العربية تتخذ من الوثنية واسطة للتقرب من الواحد، تماثيل مجسمة للنجوم أو الشمس



### ١. العلمنة «الموضوعية»:

الفكر العلماني الذي بدأ في التشكل مع القرنين ١٧ و١٨ ليصل في القرن ١٩ ليصبح إيديولوجيا البرجوازية الصاعدة، بل البرجوازية الاستعمارية التوسعية، سوف يشكل أحد أهم الدعائم الإيديولوجية ذات الطابع العلمي للنش في التاريخ العربي والإسلامي قبل البعثة وبعدها.

سوف تختلط النزعات الدينية (اليهودية، المسيحية والكاثوليكية) بهذا الموقف مستفيدة من شعار الثالوثي للثورة الفرنسية: الحرية، المساواة، والأخوة (الذي كان اليهود، دعامة الثورة البرجوازية على الإقطاع والنظام الكنسي البابوي الأرستقراطي) ليختلط اللائكية بتوابل النزعات الأخرى ذات النكهة الإيديولوجية الدينية.

وعليه فسوف تستعمل الآلة الرأسمالية في بحثها عن الأسواق الخارجية لضمان انتشار منتجاتها وتمويل ورشاتها بالموارد الأولية المادية والبشرية، سوف تستعمل كل أشكال البحث عن منافذ للتوسع والتهيئة العلمية لهذه المنافذ ولهذا الحلم التوسعي الاستيطاني: هو عنصر الاستعمار الكلاسيكي بكل ترسانته العسكرية والعلمية ولم يكن الاستشراق والاستغراب في كثير من الأحيان إلا جزء من هذا المشروع حتى أولئك الذين يتحدث عنهم د. طيب تيزيني على أساس أنهم ليبراليين، مستقلين أو اشتراكيين علميين قد استفادت من أعمالهم هذه المؤسسة الإنتاجية السياسية الضخمة المسماة بالاستعمار.

فهذا جنرال بريمون من أكاديمية العلوم الكولونيلية بفرنسا يصرح أنه وإلى وقت قصير يعتقد أن العرب هم من علموا الغرب المتوحش، يتضح الآن أن هؤلاء العرب لم يكونوا سوى ناقلين للغرب الثقافة اليونانية، بل إنتاجا ثقافيا محيطيا لمركز يراد له أن يكون غير عربي، ولو كان كذلك، المتمثل في حضارة ما بين النهرين التي تحيل إلى الفهم بأن اليهود كانوا هم الناشرين لهذه الحضارة باعتبارهم تجارا للخمر بشكل خاص ولهذا سيحرم الإسلام الخمر حسب رأي بريمون

التوحيد، فما بالك بالعهد "الوثني" (الشركي)، هذه الطبيعة لا تجعل منه شاعرا على صورة "هوميروس" المشبع بالفكر الوثني الأسطوري التراجيدي، ولا على صورة باقي شعراء الملاحم والتراجيديات الأخرى الإغريقية والرومانية، يمجّد "الآلهة" وينسب إليها الخوارق ويمتدحها ويقدها، مادام أنه كان قليل التدين!

### ١.٣ المركزية الأوروبية الاستشراقية:

تشكل نظرية التأثير بدون تأثير ومنهج البتر التاريخي لسيرورة التراكم الحضاري القاعدة التي تبنى عليه هذه النزعة في قراءة للذات العربية بعناصرها الفاعلة، والتي ستكون متكأ للحراك الحضاري والذي ستكون البعثة المحمدية منطلقه.

فالبعثة هي حركة تاريخية خارجة عن التاريخ في تصورهم، ويتفق مع هذا الطرح المستشرقون والمستغربون بمختلف الانتماءات الإيديولوجية: الاشتراكيون منهم والرأسماليون: أوروبا الشرق وأوروبا الغرب وبمختلف الانتماءات الدينية مسيحية الهوية وبمختلف المرجعيات الإيديولوجية والمعرفية الأخرى حتى تلك التي تتبنى نفسها موضوعية وعلمية.

أكد أن الأورومركزية هي نزعة ذاتية ومن غير المستبعد أن تكون شكلا من رد الفعل على نزعات مركزية أخرى كالنزعة الفارسية والنزعة العروبية على أيام خلافة الأموية أساسا، وأن الإيفو - سانتريزم، حالة سيكو - اجتماعية الشعور بالقوة أو بالضعف أحيانا. وعليه، فإن مواقفها غير موضوعية. الأورو- مركزية هي نزعة غير منسجمة لأنها تحوي ميولات ذات انتماءات إيديولوجية إثنية قومية سياسية ودينية و لكنها تشكل جغرافيا وحضاريا موقفا شبه موحد لا يخلو بالتأكيد من المواقف الليبرالية الراضة للضم والمركزية وتستعمل ضمن هذه النزعة مجموعة من المواقف ذات الدعامة الواحدة كان د. تيزيني قد تناولها بالتفصيل في «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط».

المجتمع الرأسمالي: إسقاط ثقافي فكري لم يأخذ بالبعد الأول إلا كبعد إيديولوجي متجل لحالة تراكمات اقتصادية. ستجد في هذا الطرح الدعامة الأساسية لها النزعة المادية والحركية، والفكر الماركسي والتي ستجد في بعض الباحثين والمثقفين العرب ركيزة مهمة في تدعيم هذه النزعة نفسها، نفس النزعة العلمانية الليبرالية التي ستكون دعامة العصرنة في الفكر العربي والإسلامي أحد أسسها ولبناتها الداخلية خاصة لما يتعلق الأمر بالبحث عن تأكيد هذا التوجه في ثنايا النصوص التراثية والفكرية والدينية والتاريخية والأدبية.

## ٢. العلمنة الراديكالية :

لم يكن طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي أكثر إثارة مما ذهب إليه المستعرب الإنجليزي مارجليوث (١٨٨٩-١٩٤٠) هو صفة الشعر العربي قبل الإسلام، وهو المنطلق من بداوة العربي الأمي الجاهلي الذي لم يكن مؤهلا تاريخيا ولا حضاريا لأن ينسج هذا الشعر، بل بهذه الحمولة المعرفية والدينية إذ لا يمكن لعقله المؤسس على المنطق أن يصدق أن شاعرا جاهليا قد يقول:

كل شيء مصيره للزوال

غير ربي وصالح الأعمال

أو أن شاعرا عربيا آخر يقول:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وإذا كان الأمر قد أوصل بطه حسين إلى حد التشكيك ونفي حادثة السيل العرم بغرض انسجام أطروحة البداوة والجاهلية المتأصلة في عروبة العربي ومحو لكل التباس قد يحيل إلى تبني الطرح التراكمي المعرفي والحضاري لتاريخ شبه الجزيرة العربية على العهود الأولى بما ذلك حضارة سبأ، فإن المواجهة التي وجّه بها كانت ذات بعد ديني أكثر مما ينبغي أن تكون ذات بعد حضاري أكبر حين تقطع المعاصرة كل أوصالها مع التاريخ ليصبح الشعر الجاهلي وهو أسمى أشكال الدلالات التي توصلنا إليها، مرفوضا وموضوعا.

كشكل من أشكال التحطيم الاقتصادي للنفوذ اليهودي التجاري. ثم هاهو Edmond Douthe في «السحر والدين في شمال إفريقيا»، يلغي وجود ما يسمى «بالحضارة الإسلامية» فضلا وبالحضارة العربية أصلا» بتطبيق قاعدة أن لا حضارة إلا لدولة ولا لدين!

القراءة المتوسطة لشبه الجزيرة قبل الإسلام، تم تشكيلها وتثقيفها من مرحلة إلى أخرى ومن مؤرخ إلى آخر بحيث تم صقل هذه الأفكار لتصبح منسجمة مشكلة لتوجه عام يعبر عن مرجعية واحدة. هكذا نجد بعض المؤلفين الرومان Cadulle et Tibulle منهم ينعتون العربي بالطيب واللين، في تعاملهم التجاري مع الرومان، لينكر عليهم هذا الوصف مؤكدا أننا كنا نملك رأيا خاطئا غير دقيق على شبه الجزيرة العربية معللا قوله بقول Pline بشأن ملايين القطع النقدية التي كانت روما تقدمها للتجارة العربية لعاصمة (مكة) بلا صناعة ولا إنتاج عاصمة تمتص كل شيء ولا تقدم أي شيء مدينة غير منتجة التي كانت تشكل أخطبوطا حقيقيا.

وعليه، فسوف تعمل النزعة الأوروبية مركزية بإيديولوجيتها العلمانية تارة والدينية تارة أخرى على تحويل مجرى حركة المجتمع العربي بعد الإسلام إلى مجرد حركة آلية ميكانيكية يغيب فيها الثقافة والعقائدي ليتحول إلى المركز الثاني بعد الاقتصاد والمصلحة التي بنيت عليها حركة

6- Edmond Douthe: Magie et religion dans l'Afrique du nord..Edition. Adolphe Jourdan. Alger. 1909. pp 5/6.

حتى فيما يتعلق، فيما بعد بالقراءات للتاريخ الإسلامي الأول والوسيط، سرعان ما تعود الإنية المركزية الأوروبية لتتحم «العقلنة» والموضوعية «والعلمنة» في عدة مواقع ومواقف إسلامية، بدء من التأويل والقراءة للقرآن وللسنة ثم جمع الحديث وعموم حركة التدوين. هنا، يتدخل «التشكيك».. المؤدي حتما إلى النفي.. (وليس الشك الديكارتي): نفي الصحيح وتأكيد غير الصحيح! والسبب هو رفض الطرح الإسلامي من أصله بالتشكيك في أصوله، هذا رغم الصرامة العلمية والمنهجية التي اتبعها الفقهاء والرواة في جمع القرآن والحديث والقرآن وتصنيف هذا الأخير بين صحيح وغير صحيح وموقوف وموصول وضعيف إلخ..! منهجية ودقة، رأى فيها البعض غربة وإقصاء لآيات وأحاديث «لجاجة في نفس الفقهاء».

### المراجع:

#### المراجع العربية:

- طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي  
العصر الوسيط، دار دمشق، ١٩٧١.
- أحمد أمين، فجر الإسلام القاهرة، الطبعة ٢،  
١٩٦٤.
- عبد المنعم ماجد: لماذا ظهر الإسلام في جزيرة  
العرب، دار الجيل بيروت، ١٩٨١.
- د. جعفر دك الباب النظرية اللغوية العربية  
الحديثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب،  
دمشق ١٩٩٦.

#### المراجع الأجنبية:

- Edmond Doutté: Magie et religion  
dans l'Afrique du nord. Ed. Adolphe  
Jourdan. Alger. 1909.

هذا المنهج قد وجد في التنقيب عن مظاهر  
الجهل الجاهلي والأمية العربية فيضا معرفيا  
لرفض أية حضارة ولو لغوية أو فنية وأدبية:  
استبدلت الثقافة الكاليفرافية كشكل رمزي للثقافة  
العالمية بالثقافة الشفهية كثقافة أمية، دون محاولة  
تدقيق في هذه الإلغائية ودون اعتبارات لمحاولة  
فهم الثقافات الشفهية على أنها أرقى الثقافات  
التجريدية، مجتمع طور حاسة الأذن واللسان  
أكثر مما طورته أية حضارة دون أن يهمل المعرفة  
الخطية ذلك الإهمال المطلق أو حتى النسبي الذي  
يتحدث عنه المثقفون العرب المعاصرون ناهيك عن  
المستشرقين.

هكذا تشكل القراءة الاستشراقية للموروث  
الثقافي الحضاري العربي والإسلامي، منهجا  
متكاملا مختلف غير منسجم باطنيا، منهج تحول  
مع القطبيات الثقافية إلى معتقد واحد بطقوس  
مختلفة اعتنقها تحت تأثير العصرية والعلمنة  
تارة وتحت تأثير الإيديولوجية العلمية تارة أخرى  
مثقفون عرب «لتكسيب» هذه الثغرة شرعيتها  
التاريخية والعلمية مقصية بذلك أي منهج وسبيل  
للبحث العلمي إلا هذا المنهج العلمي الموضوعي  
الذي لا يضع في الحسبان الذاتية (العربية  
والإسلامية) ولو كان هو ذاته منهجا منحوتا من  
الذاتية الأخرى.